الناقة ورحلة الوجود، لدى طرفة بن العبد البكري

طالب دكتوراه : عبد الرحمان خلدون
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة- (الجزائر)

ملخـــــص:

منذ القدم اعتنى الإنسان بالناقة، فهو يرى أنها رمز للموجودات وأقوى الحيوانات وأجلدها على المقاومة والصبر، ولأنها رفيقته التي لا تمل ولا تشكو ولا تضجر
تحمله وتنقله ضمن رحلة العمل التي ينوي القيام بها، من أجل تحقيق الهدف والأمل معا، وهي دربه وأنسه في وحدته وغربته، في حله وترحاله، حيث احتلت الناقة مكانة كبيرة عند الإنسان الجاهلي حتى بلغت حد التقديس، واعتبرها الجاهلي وسيلته للرحلة عبر الزمن، وذلك بتفريج الهم، وتخفيف القلق والاكتئاب النفسي الحاصل للشاعر، فالناقة هي الوجه المشرق للحياة، الذي ينمي بالشاعر الحس بالتسامي والرغبة في البقاء والخلود.

Abstract

Since ancient time, the man took care of Camel (Naqh), he saw it as a symbol of existence and the strongest animal for resistance and patience, it's his companion that does not get bored and complain, carry and transport him within the working trip he intends to do, in order to achieve both goal and hope, and it's his path and companion in his loneliness and his foreignness, In his stay or trips, where camel occupied a great status for the pre-islamic man until it reached the status of sanctification, and it has been considered as a way to travel through time, to carefree, relieve anxiety, depression and psychological-winning for a poet, so the camel (naqh) is the bright side of life, which develops at the poet the sense of transcendence and the desire to survival and immortality.

توطئة :

انتقل الشاعر الجاهلي من وصف الطلل إلى وصف الناقة والرحلة في الصحراء، وكأنه أمر طبيعي تدعو إليه ظروف الحياة وحاجاتها، ولذلك كان عليه أن يركب ناقته القوية ويرتحل ضاربا بعصاه في الصحراء بقوة وعزم، فهي السبيل الوحيد للتعزية عما يصيب الشاعر من هم ونصب وشكوى وحنين، وشدة فتور وإعياء من طول الرحلة وسأم المسير، وهو بحكم ظروف بيئته قد وطن نفسه على مجابهة الحياة والانتصار عليها، وأكثر ما أبرزه الشعراء من سلوكيات الناقة الشكوى والحنين، الشكوى من طول الرحلة وسأم المسير، والحنين إلى الوطن والألاف، إذ تبوح له شكاتها عبر زفرات حزينة وآهات دامعة، فيفهمها حق الفهم فيقوم إما بتصبيرها أو بمعاتبتها، وهذا ما نجده عند عدة شعراء، نذكر منهم:المثقب العبدي، بشامة بن الغدير، المتلمس الضبعي، الحارث بن حلزة اليشكري، وطرفة بن العبد البكري، وغيرهم كثير.

وصف الناقة ورحلة الوجود عند طرفة :

اتخذ طرفة بن العبد من وصف ناقته كل معاني القوة والشدة، فهي تعكس مرآة صافية حال صاحبها وموقفه من هذه الرحلة التي أخرجته من وطنه وأهله، إنها في الحقيقة صورة طرفة نفسه، «فهو يعيش الوجود أزمتين تسكنانه معا، أزمة الغربة الوجودية، أزمة الموجود البشري كفاجعة محتومة لا محيد عن مواجهتها ذات يوم، لأنه وجود موصود بالموت، وأزمة الغربة الاجتماعية المناضلة، من أجل استتباب الحرية»(1)، ولهذا نجد في معلقته حقيقيتين أساسيين هما:صغر الحياة وضخامة الموت، فالحياة نفسها في تسابق مع الموت.

ويسعى طرفة كأمثاله من الشعراء إلى تحقيق الانتصار على الحياة، حيث أوضح هذا ***الجانب صراحة في موضعين :***

الموضع الأول :

عند انتقاله من مقدمته الغزلية إلى وصفه للناقة، في قوله (2) :

وَوَجْهٍ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّت رِدَائَهَا عَلَيْهِ نَقِيُّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَخَدَّدِ

ثم يقول :

وَإِنّي لأَمْضِي الهَمَّ عنْدَ احْتِضَارِهِ بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي

يتردد فعلا «الإمضاء» و«التسلية» ومرادفاتها في الشعر الجاهلي كثيرا، فالهم يحضر ويتجلى حين يتذكر الشاعر ماضيه، فينتقل بواسطة ناقته إلى مكان آخر ويوليه شطره، فالناقة هنا تمضي هموم الشاعر وتسليه، لكي يعيش زمنا غير الزمن الذي عاشه، تقول أوراس نصيف جاسم محمد«فهذا الصاحب _الناقة أو البعير_ تنجلي بصحبته الهموم، وينسى بإرقاله وتبغيله صورة نضوب ينابيع الحياة والحب من أطلال الأحبة الراحلين، وهذا ما صرح به كثير من الشعراء في صور رحلاتهم بعبارة:فسل الهم، أو ما يماثلها من عبارات»(3)، فهموم الشاعر ما هي إلا مخاوفه التي يتخبط فيها، وللخلاص من هذه الهموم لابد من الرحلة في الصحراء، للتسرية عن النفس، والتماس العزاء مما يرى حوله، وللتخفيف من وطأة مشاعره الدافقة، قد اتخذ ناقته قناعا أو معادلا شعريا له يلقي عليه كثيرا مما في نفسه، وقد صوّرها تصويرا رائعا، وهذا لما يطمح إليه من قوة يواجه بها مصاعب الحياة وهمومها، فالناقة ها هي رمز لحياة أخرى، بل هي رمز للإنسان الهالك والدهر المتجدد.

فالناقة وسيلة للرحلة، فبعد أن ذرف الشاعر العبرات على الطلل البالي(الماضي) بغزارة وأسى وحسرة، نهض إلى ناقته التي تمثل الحاضر والمستقبل، دون تردد أو تضييع للوقت، ففي قرارة نفسه يرفض الوقوف والثبات، فهما بالنسبة إليه الموت، ولذلك لزم عليه الحركة لأنه لا يشعر بالحياة إلا من خلالها، يقول صالح مفقودة«...فالشعراء أكثر الناس إحساسا بالزمن وتعاملا معه، ولقد أحس الجاهليون بمأساة انقضاء الوقت، وما يصحب ذلك من انقضاء العمر فعزّ عليهم ذلك، وأحسوا عميقا بتلك المشكلة، فصوروها في قصائدهم»(4)، وقد تجلى هذا الإحساس في مختلف موضوعاتهم الشعرية .

فالشاعر عقد بينه وبين ناقته وشيجة متينة، نقلها إلى كائن حي ينطوي على جوانب إنسانية، فهي تحس وتشعر، وتنطق مصرحة بما يمور في نفسها من هموم وأحزان، فلم تعد حيوانا أعجميا صامتا، فائدتها مقتصرة على الإطار النفعي فحسب، بل تعدى الأمر إلى اتصال الشاعر بها اتصالا نفسيا وشعوريا ، فبثها همومه وآهاته، كما بثته شكواها وشجنها

وكثيرا مـا تطابقت نوازعهما وأحاسيسهما في ذلك، فالإسقاطات المتتالية على ناقته، إنما هي نفس طرفة التي أرهقها الرحيل، وهذه الشكوى هي ذاته المكلومة ، «التي كان يحارب ضعفها وحنينها إلـى الأهل والوطن المتروك، وليس طلب طرفة من ناقته الصبر على مشقة الرحيل إلا خطابا لذاته هو لتكف عن الشكوى وتحبس زفراتها الدامعة بصبر جميـل»(5)، إن اضطرام نفسيـة الشاعر

بالآراء المتضادة انعكست على الناقة، فاكتسبت مظهرا يبدو متناقضا، تناقض الذات نفسها، يرى عبد العزيز محمد شحادة«أن الشاعر قد أسقط كما هو الحال في الحيوانات الأخرى، ذاته في الناقة، ولذلك ليس غريبا أن نجد الناقة تحمل صفات متناقضة تناقض الذات نفسها القائمة على صراع الأضداد فيها كالأمل واليأس، والموت والحياة، المفارقة والعطاء، بعد الحرمان من الري، والإشباع بعد الجدب، والأمن بعد الخوف، كل هذا دلالة على عدم التوافق بين ما يختلج النفس داخليا وخارجيا، أي مناهضة ومعارضة الإحساس السائد فـي وجدانه، تجسدت في تلك اللحظة بعزوف الناقة وامتناعها على التوحد النفسي معه»(6)، فهذا التمازج بين المتناقضات التي افتعلها الشاعر، انعكسـت بصورة خاصة سلبا وإيجابا على ناقته فهي إذن مزيج من العالم الداخلي والخارجي للشاعر، مع أنه لم يصرح في النص بذلك، إلا أن شواغله وهواجسه تبدو متجسدة في شخصية الناقة وموقفها في القصيدة .

الموضع الثاني :

بعد انتهائه من وصفه للناقة، يقول (7) :

عَلَى مِثْلِهَا أَمْضِي إِذَا قَالَ صَاحِبِي   أَلاَ لَيْتَنِي أَفْدِيكَ مِنْهَا وَأَفْتَدِي
وَجَاشَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ خَوْفَا وَخَالَهُ   مُصَابًا وَلَوْ أَمْسَى عَلَى غَيْرِ مَرْصَدِ

على مثل هذه الناقة أمضي وأتنقل في أسفاري، بالمقابل يتمنى صاحبي أن يفديني بنفسه من مشقة هذه السفرة المهلكة، ويخلص نفسه كذلك، لكن الخوف أثر على قلبه وروّعه، لصعوبة هذه الفلوات الموحشة، حتى ظن أنه هالك لا محالة، يقول سعيد حسّون العنبكي«لقد ذهب بعض الشرّاح القدماء إلى أن الهاء في 'منها' والتي تحتضن مغزى الخوف

ودلالته الصريحة إنما تعود على الصحراء، أو الفلاة، وهو افتراض لا يمكن الاطمئنان إليه، لأن الهاء في البيت تتحدث عن شأن أعمق من ذلك، يحمل دلالات مضمونية واسعة ترتبط بطبيعة الرّحـــلة التي يقبل عليها الشاعر» (8) .

يتبين لنا من كلام الشاعر أنه صاحب قرار، وهو مصمم على تنفيذه، وعدم سماع نصيحة صاحبه، هذا الصاحب ما هو إلا نفس طرفة الخائفة من هذه الرحلة الخطرة، غامضة المعالم، صعبة المسالك، وهذه المفازة التي يتجشم غمارها بترقب وخوف دائمين، ما هي إلا حياة أخرى سيعيشها الشاعر بعيدا عن قومه، بحكم أنه تمرد على الأعراف والتقاليد السائدة في قبيلته، فخرج عنها، وهذا الخروج بمثابة تحدي لقومه، من هذا كله نفسر موقف الشاعر .

من الحياة والموت، يقول عبد الحق حمادي الهوّاس «وعليه تكون هذه المفازة هي غربة الشاعر التي شرحها فيما بعد بشعره ووصفها بأنها كأس موت، ولهذا نلاحظ عصبية تلف سلوك الشاعر في تعامله مع الناقة، وفي البيت الذي هو في واقعه يمثل بداية الرحلة بغض النظر عن موقعه في القصيدة، فصاحبه ودعه قبل أن يبدأ رحلته وكلامه سابق لإظهار صفاتها المثالية » (9) .

طرفة وناقته الأسطورية :

إذا عدنا إلى ناقة طرفة وصفاتها الأسطورية المتمثلة في أنها لا تمل ولا تتعب، أوضح لنا أنها تميزت بالقوة والشدة والتحمل، حيث تغدو الناقة المتعاظمة صورة داخلية للشاعر طرفة، مثلما هي تعبير عن مشاعره ووجدانه الداخلي، يقول (10) :

أَمُونٍ كَأَلْوَاحِ الأَرَانِ نَسَأْتُهَا   عَلَى لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

إن هذا البيت كما نرى يعكس مشاعر عميقة، إذ أن الناقة قبل أن يحشد لها قوتها وصلابتها، هي قبر لسيد كريم هو طرفة «ومن هنا أيضا نلمح أن رحلة طرفة، أو صورة ناقته تحمل إشارات عميقة لتكسر النفس الإنسانية، التي يلوذ بها طرفة، فهي تحمل إشارات عديدة تكشف عن الترّقب والخوف والانشراح»(11)، فهي ناقة يؤمن عثارها،

ثابتة الخطى، لا تسقط عند سيرها أو إرقالها، وهــو بحاجة إلى مثل هذه الناقة، ثم شبهها بألواح الإران وهو التابوت، المصنوع من الخشب، يضعون فيه توابيت سادة القوم عند موتهم، وهي حالة نفسية وشعور داخلي قد اختلج نفس الشاعر، تمثل في الخوف والقلق، الذي يعتمل ضميره، فرأى نفسه أنه ميت محمول، وهذا التخيل نبع بعد مفارقته لقبيلته وارتحاله عنها، يقول صالح مفقودة«...، نجدها على حد تعبيره أيضا مثل ألواح الإران التي يحمل عليها الميت وهذه الصورة توحي بالموت، وحين تكون هذه الناقة مثل ألواح الإران فإن راكبها يكون شبيها بالميت وكأن أرجلها قوما يحملون ذلك النعش ويتتابعون على طريق معلوم نحو المقبرة»(12)، والشاعر هنا يكشف عن ذاته الغابرة داخل هذه الألواح، التي في واقع الأمر تكشف عن حدّة الإحساس الحاصل، فلذا تعدّ صورة الناقة أكبر تجسيد لأحاسيس الشاعر ومشاغله .

فهو يريد إذا أنها قوية وهذا صحيح، بيد أن أحدا لا يحبذ أن تكون أداة سفره ضعيفة هزيلة، ولا يكتف الشاعر بهذه الإشارة والتمثيل فقط، بل تعدّاها إلى إشارات أخرى، تبدو أكثر بروزا لمثل هـذا الانكسار النفسي أو القلق، كما نلاحظ في البيت الذي نلمح فيه الشاعر أكثر ارتباطا بالناقة، عندما جمع بين الناقة وصاحبها، فصورها مرقالا تروح وتغتـدي، فهي عدّاءة سريعة، ثم نراه يقول (نسأتها) أي ضربتها بالمنسأة وهي العصاة، مما يشير إلى سرعة الشاعر (نفسه) للهروب أو الخروج مما هو فيه، فالخوف والقلق قد اجتمعا عليه، ولذلك«نجد الشاعر حين يعلو ظهر ناقته حريصا على السير سريعا ، كأنما يريد تعويض ما فاته، فهو يرى أن وجوده إلى انتهاء، ولهذا لابد له من الرحيل لإتمام رسالته وتحقيق وجـوده، رغم أن في هذه العجلة موته أو ما هو أسوء من الموت» (13) .

من هذا المنطلق اتخذ الشاعر طريقا إلى تحقيق هدفه وهو الانتصار علـى الفناء وضمان حياته، فتصور ناقته كائنًا حي خرافيًا أسطوريًا ليتحصن به من الموت، يقول يوسف اليوسف(الناقة من حيث هي كينونة راسخة لا تقبل الزعزعة، ولا تشبه إلا كائنا خرافيا يتعذر أن يلحق به الفناء أو التغير)(14) ، ومن هنا بدأت أولى مشكلاته الفكرية، وبدأت معه هموم البحث عن الخلود، فقد تعاظم الموت في عينيه وكبر، أدى بشعوره المستمر بالقلق والخوف من المصير المحتوم، وهذا ما ذهب إليه مجموعة من النقـاد، فهم يرون أن«أهم

جانب من تراث الجاهليين إنما يتمثل فيما نقل إلينا من تأملاتهم حول مشكلة الموت، أو لنقل مشكلة المصير»(15)، حتى أضحى قلقه كبير وهاجسه مريعًا. وإذا مضينا معه في معلقته سوف نرى انشغاله بتحقيق هذه الفكرة المتمثلة في الانتصار على الحياة، فغريزة البقاء وحب العيش والانتصار على الحياة، والصراع من أجل البقاء، تلح عليه إلحاحا شديدا، يقول محمد زكي العشماوي«...هو أن ثمة وحدة تسود الشعر الذي كان أهم مظهر من مظاهر نشاطهم الفكري وحياتهم العقلية والفنية، تلك الوحدة يمكنك تسميتها وحدة الصراع من أجل الحياة»(16)، ولهذا كانت الناقة هي التعبير الصحيح عن فكرة الثبات والقهر والصمود، وهي التعبير الحقيقي عن فكرة الحركة واستمرارية الحياة التي كانت شغله الشاغل، يقول يوسف اليوسف«وهذا يعني أن الناقة محاولة لتنميط صورة الصمود ، أو الثبات في وجه التدمير أي هي مكافئ خارجي شاخص لصورة مجردة، أنها محاولة لجعل اللامرئي مرئيا، أو قل أنها تخارج لا شعوري لانفعال داخلي خالص» (17) .

الناقة ورحلة الوجود :

تصور الشاعر ما هو إلا رمز لمعنى النضال من أجل الحياة، إنها صورة أخرى تقود العربي القديم في كل تفكيره وسلوكه، فالراحلة هي الرحلة في الحياة بما يساور المرء فيها من

الأحزان والمخاوف والأمن والرضى والخيبة والحنين، فلا مفر له من مجابهة الحياة ومقاومة ظروفها الصعبة، فالحياة نضال وجهاد، وهي شراع النجاة في الظلمة الحالكة المحيرة وشمس النهار الساطعة الضاحكة، تقول نضال أحمد باقر الزبيدي«وقد وجدت مع الإنسان غريزتا حب الحياة وكره الموت ومقاومته، فطالما حاول الإنسان مقاومة الموت أو الهروب من سطوته، والبحث عن الخلود، وقد قام بمحاولات عديدة، بحث من خلالها عن سرّ الخلود»(18) لكنه بقي عاجزا إزاء سطوة الموت، حيث عاين الشاعر الوجود ببصره وبصيرته، ووقف مندهشا أمام سر فناء الأشياء، فتعاظمت أمامه هذه المشكلة، فوقف عاجزا أمام هذا الزحف الذي يغتال زمنيته وحياته، قاده هذا العجز والاستسلام إلى الإقرار بحتمية الفناء، لكن لم يستسلم لهذا الأمر المحتوم كلية، فنجده قد سارع إلى تحقيق وجوده وانتماءه، في اغتنام فرصة الحياة للعيش بامتلاء، فأقبل على الملذات واللهو، كل ذلك

للهروب من الاصطدام المباشر مع الموت وحقيقة الزوال، فأسقط على ناقته بعض أحوال نفسه وصفاتها ، يقول طرفة (19) :

تُبَارِي عِتَاقًا، نَاجِيَاتٍ، وَأَتْبَعَتْ وَظِيفًا وَظِيفًا، فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

يقول الشاعر أن ناقتي سريعة نشيطة تنافس كرام الإبل، تجري على طريق معبد لها، كأن ما منحه لناقته جاء بعد أن وجد نفسه في هذه الناقة، فقد غمس كثيرا من صفاته الظاهرة والباطنة في دم الناقة، يقول صالح مفقودة«عندئذ يجوز لنا أن نلغي الفوارق بين هذه الناقة وبين الجسم الإنساني الذي تحل فيه نفس الشاعر وتنعدم الفوارق بين الإنسان والراحلة ويستبدل الشاعر الحديث عن نفسه بالحديث عن هذه الناقة التي هي امتداد لجسمه، ووسيلة حقيقية لتنقله، وهي أهل لما يدور بخلده، بشعوره ولا شعوره، بقوته وضعفه»(20)، وبهذا الإسقاط يرى أن ناقته تحقق له الأمان، فالطريق مذللة أمامها معبدة ، قد وفّر لها أسباب الإرقال والوخد، كل ذلك في محاولة للتغلّب على الخوف الذي يعتريه، لأنه قد أحس بالموت تحوم حواليه، لكن بقدر ما كان يحس الشاعر من خوف وألم بقدر ما كانت بوادر الأمل والانتصار بادية ظاهرة له، ثم شبه ذيلها كجناحي نسر أو صقر، قد ركب وفصل تفصيلا لها، يقول طرفة (21) :

كَأَنَّ جَنَاحَيْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنَّفَا حِفَافَيْهِ شُكَا فِي العَسِيْبِ بِمَسْرَدِ

لأن الشاعر يعلم في قرارة نفسه أن الموت حتمية لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بمواجهتها، لذلك صوّرها كما تمنى، وقد علق كل أمانيه عليها، فكانت المحرك والمحفز

الأساسي للتغلب على الحياة ومقاومة قسوتها، فهي كل شيء في حياته، لم يبق له سواها، مؤنسته في وحدته ووحشته، حيث القفار والأخطار التي تترصد من كل مكان، فكانت كجناحي النسر المغروزين بقوة ومتانة في عظم الذنب، والشاعر استدل بالنسر ودلالة هذا أنه من الكائنات التي تعمر طويلا، إذ هو رمز الديمومة والاستمرار، مثلما هو رمز القوة والشدة(22)، وهذا عامل نفسي هدفه تحقيق الصلة والانتماء، للحفاظ على

وجوده واستقراره، فرحلته مملوءة بالتهديدات والضياع والتيه، المؤدية إلى الموت الحتمي، ولذلك نجد لديه الرغبـة في التمرد والمغامرة بدلا من الاستسلام، ثم شبهها بقنطرة الرومي في تماسكها وقوتها، حيث يقول (23) :

كَقَنْطَرَةِ الرُّوميّ أَقْسَمَ رَبُّهَا لَتُكْتَنَفْنَ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ

فكل شيء في هذه الناقة حجري حتى قلبها، قد تحولت إلى قصر مبني من الحجر، أي أن مطلقية الوجود قد وحّدت بين الحجر والناقة، والوعي الذي يقودها والعالم الذي تقوم بتأسيسه، ولذلك ضرورته الفائقة في عالم الصحراء الذي لا يبقى فيه سوى الحجر«إن الوعي الشعري يبني ناقته (بيتا) من الحجر المطلق لكي يسكنه ويحمي به ذاتيته وعالمها الجديد ويخترق عالم الدهر ويمنعه مـن الاتساع»(24)، وهذا الرمز إن دل على شيء فإنما يدل عن حقيقة موقف الشاعر من الحياة ورغبته في الانتصار عليها بكل ما أوتي من قوة، يقول يوسف اليوسف«ينطوي هذا التشبيه عى مسألتين هامتين: القنطرة والقصر رمزان للمنعة أمام التغير من جهة، وإشارة شديدة الاستتار إلى أزمة الحضارة العاجزة عن الاستتباب في بوادي العرب من جهة أخرى»25، فهو يراها أنها بديل عن القبيلة، لأنها حمته حين تخلت عليه قبيلته، ثم يرى ناقته كسفينة، وعنقها يمثل قيادتها، والملاح هو شيخ القبيلة الذي يتولى رحلتهـا، يقول طرفة (26) :

عَدَوْلِيةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
وَأَتْلَعُ نَهَّاض إِذَا صَعَّدَتْ بِـهِ كَسُكَانِ بُوصِيٍّ بِدَجْلَةَ تُصْعِـدِ

إذن يكون الملاح في هذه الرحلة ذاتية الشاعر نفسه، وهو الذي يمسك بالسكان أو بمقذاف السفينة، باعتباره القائد الآمر الناهي، وهذا التمثيل والإشارة عبارة عن سفينة عبور إلى الحياة الثانية، ثم ينتقل إلى وصف حاسة من حواس الناقة، إذ يقول(27) :

وَصَادِقَتَا سَمْعِ التَّوَجُسِ للسُّرَى لِهَجْسٍ خَفِيٍّ أَوْ لِصَوْتٍ مُنَدَّدِ
مُؤَلَّلَتَانِ تَعْرِفُ العِتْقَ فِيْهِمَا كَسَامِعَتَي شَاةٍ بِحَوْمَلِ مُفْرَد

هذا الوصف الظاهر لا يريده، وإنما يريد شيئا آخر، فطرفة بن العبد وصف سمع ناقته بالصدق ، إشارة إلى أن سمعها لا يكذب أبدا، فكل صوت له مصدر خارج منـه، وكل صوت تسمعه فهو حقيـقي، وهذه الميزة في الراحلة تؤدي وظيفة نفسية وفكرية يفتقر الشـاعر إليها في رحلتـه، التي يضرب سيف الموت من خلالها في ترس الحياة، وحين تكون راحلته بهذا القدر من السمع فهي تمنحه طمأنينة وراحة بال لأنها قد أكملت نقصه، فهي حاملته نهارا وحاميته ليلا، إذ تقف على رأسه حارسة حين ينسدل الليل يرى عبد الحق حمادي الهواس أن «دلالات الخوف والفزع والحذر بادية عند الشاعر، فألفاظ البيتين ومعانيه جانب من جوانب الصراع، غير أنه صراع نفسي خفي أو غير مباشر، ويبدو أن السبب في هذا هو أن الشاعر قد قطع مسافة طويلة من الرحلة، أو أنه أصبح في نهايتها مما جعله يوقن أنه مهاجر لا محالة وأنه وحده في أرض قفار قد انعدم فيها كل وسائل الحياة»(28)، ثم ينتقل الشاعر من الأجزاء الظاهرة إلى الأخرى الباطنة فيذهب إلى القلب فيعطيه صفات مادية كالقوة والارتياع والنعومة والخفة ليدل بها على صفات معنوية هي الذكاء وشدة النبض عند الفزع، يقول (29) :

وَأَرْوَعُ نَبَّاضٍ أَحَذُّ مُلَمْلَمٌ كَمِرْدَاةِ صَخْرٍ فِي صَفِيحٍ مُصَمَّدِ

وما يقابل الروع والسرعة والنعومة، هي القوة، لكن هذه القوة لا تدوم، كما يرى صالح مفقودة في قوله«والمعضلة أن هذه القوة مهما عظمت فلن تصمد أمام الموت لأنه يتخللها، فمهما كانت القوة، قوة الناقة أو الإنسان فإن الضعف هو النتيجة»30، فهذه القوة يتخللها الضعف، فقلبها الصخري هو قلب مروع خائف مرتجف قبل أن يكون صخريا، والشاعر هنا لا يريد الفزع والخوف بمعنى الجبن، وإنما يريد أمورا أخرى تتعلق بالحنان والطيبة في مقابل قوة القلب أو الإقدام والجسارة، فكلها تجتمع أو تلم في قلب هـذه الناقة،

وفي هذا تفاعل واندماج بين الشاعر ونفسه وأهوائه، وبين الناقة التي أصبحت أنيسه الوحيد وكلمة صخرة أو ما يرادفها قد تواتر عليها عدة شعراء في برهة الناقة والصخرة هنا رمز الصمود أمام تيار الزمن الهادر، أو هي رمز الثبات بعامة .

بعد أن منح الشاعر لناقته صفات القوة بدأ في نهاية الرحلة يمنح نفسه هذه الصفات، فالسوط بيده يمارس به أوامر القوة ويبث الخوف في ناقته، يقول أحمد وهب رومية«هل سألنا

أنفسنا مرة:ما وظيفة هذا السوط الذي يلسع ظهر الناقة؟يزعم الشاعر أن السوط يظهر حدة الناقة وسرعتها ونفارها، وأزعم أنه رمز للدهر، ألم نقل:إن الناقة معادل موضوعي للشاعر؟، فمن ذا الذي يجلده على امتداد الوقت، فيتوجس ويرتاع ويرقبه بطرف العين مراقبة الحذر الوجل؟لقد كان طرفة يدرك خطر مناوشة الدهر، فحصن ناقته، وأمدها بكل أسباب القوة»(31)، نظرا للحس بالتسامي، والرغبة في البقاء، ويستكشف حقيقة الصراع الذي هو لب الحياة الكونية وناموسها الخالد؛صراع من أجل تحقيق الذات، وتحدي القدر ومقارعة الموت واليأس في زحمة هذه الحياة القاسية المفعمة بالانكسارات والغموض والمآسي، يرى حسن فتح الباب أن طرفة كان من أكبر عشاق الحياة، ولذلك شغلته مشكلة الموت وكانت محورا أساسيا من محاور شعره(32) ، كل هذا ينبئ عن تشبث الإنسان الجاهلي بالحياة ورغبته في الاستزادة منها، وكلما تقدمنا في القصيدة عثرنا على مثل هذه المعاني، يقول طرفة (33) :

كَأَنَّ عُلُوبَ النِّسَعِ فِي دَأَيَاتِهَا مَوَارِدُ مِنْ خَلْقَاءَ فِي ظَهْرِ قَرْدَدِ
تَلَاقَي وَأَحْيَانًا تَبِيْنُ كَأَنَّهَا بَنَائِقُ غُرٌّ فِي قَمِيصٍ مُقَدَّدِ

إن هذا الجسم رغم قوته فإن الضعف يتخلله، فلم تسلم من عوادي الدهر، فلقد فعلت بها تلك النسوع مثلما تفعل الأيام بالقميص المقدد، حيث تراءت هذه الآثار للناظر كأنها خطوط على ظهر برجد، وهذا ما فعله الدهر بها، فهو يحمل جثته ويسير بها إلى الفناء، لأنه علم وتيقن أن لا سبيل للخلود، والموت قدر محتوم لا مفر منه، ينهل منه كل

الأحيـــاء، ولذلك قد أبدى الشاعر تشاؤما من الحياة ما دام أن هناك موتا يتراءى بين عينيه، وهذا الطريـق الذي يسير فيه مطروق من قبل، وفيه من الوحشة والخطر الكثير ولكن رغم هذه الأهوال والمخاطر التي يقطعها الإنسان فإنه لا ينثني على مراده وهدفه المنشود، فهو في سير متواصل إلى الأمام، دون الالتفات إلى الوراء(34) .

خاتمة :

إن هدف الشاعر هنا ليس ملء الفراغ أو التسلية وإنما حالة شعورية وإحساس متدفق من المستقبل المجهول، والخوف والقلق الذي يعتريه طيلة حياته فهو يسأل عن وجوده ومصيره ونهايته، فكان سؤالا يؤرقه ويعكر عليه صفو حياته وحلاوتها وبهرجتها، فتولد لديه شعـور بالغربة والوحدة النفسية والقلق والحيرة والحزن، فحاول الخروج مـن هذه الدائرة المغلقة وخلق وجود آخر غير الوجود الذي نغص حياته وأفسدها.

وقد تمثل هذا الوجود في اتخاذ طرفة بن العبد الناقة كمعادل موضوعي، لتصوير حالته النفسية، كما اتخذ امرؤ القيس والطفيل الغنوي والنابغة الجعدي الخيل كمعادل موضوعي، وفي وصف الحمر الوحشية لبيد بن ربيعة وزهير بن أبي سلمى والأعشى، ولعل الناقة أبرز الحيوانات التي عني بهـا الشاعر الجاهلي، فهو يرى أنها رمز للموجودات وأقـــوى الحيوانات وأجلدهـا على المقاومـة والصبر، ولأنها رفيقة دربه وأنسه في وحدته وغربته، في حـله وترحاله، ومصدر الخيروالرزق، والواسطة الأكيدة في الوصول إلى ديار الحبيبة الضاعنة، فمن خلال رحلته على الناقة تتجلى آصرة الصداقة والألفة بينهما، لأنها أجل سبب يحافظ بوساطته على حياته من الهلاك، فسموّها بالناجية التي تنجو بصاحبها فـــي رحـلات محفـــوفة بالمخاطر، وقد عدها الشعراء خير صاحب ومرافق في الرحلة الطويلة، فهي الحياة التي تشبـع الشاعر رغبته في الإحساس بدبيبها في أوصاله، بعد أن رأى الموت ينسج خيـوطه بمعونة مـن الزمن، فمعاناة النوق وهي حاملة الشاعر إلى المكان المقصود سواء أكان إلى الممدوح أو مكان آخر، إنما يدل على نفسيات الشعراء وصراعم الداخلي، فهي مشاركة الشاعر في وجدانه بكل ما يحمل من معاناة وهموم .

الهوامش والمراجع والمصادر

(1) يوسف اليوسف، بحوث في المعلقات، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2007، ص:55 .

(2) الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق:عبد الرحمن الطويل، دار المجدد، سطيف، الجزائر، ص:59(التخدد:التشنج والتغضن).

(3) ينظر:صور الشعراء الفنية قبل الإسلام من منظور المنهج النفسي، للطالبة:أوراس نصيف جاسم محمد، إشراف:أحمد إسماعيل النعيمي، مذكرة تخرج لنيل درجة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، مجلس كلية التربية للبنات جامعة بغداد، 2004م، ص:81.

(4) صالح مفقودة،الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع المعلقات،دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 2003، ص:33.

(5) سلوك الحيوان في الشعر الجاهلي،دراسة في المضمون والنسيج الفني،للطالب:سعد عبد الرحمن العرفي، إشراف:عبد الله ابراهيم الزهراني، رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، 2005، ص:400، 448. وينظر:دلالات الوحدة في قصيدة الصيد الجاهلي،عصام محمد المشهراوي، مجلة جامعة الأزهر، بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، 2010، المجلد 12، العدد 2، ص: 126 .

(6) ينظر:عبد العزيز محمد شحادة، الزمن في الشعر الجاهلي، 1995، ص:191، 192.

(7) الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق:عبد الرحمن الطويل، ص:69(خاله:أي ظنه المرصد:الطريق) .

(8) سعيد حسّون العنبكي، الشعر الجاهلي، دراسة في تأويلاته النفسية والفنية، دار دجلة ط1، الأردن، عمان، 2008، ص:361.

(9) ينظر:عبد الحق حمادي الهوّاس، اللوحة الضائعة في معلقة طرفة بن العبد، دراسة أدبية نقدية لبنية القصيدة العربية، دار الفتح، عمان، الأردن، 2003، ص:156، 157 .

(10) الزوزني : شرح المعلقات السبع، تحقيق:عبد الرحمن الطويل، ص:60 .

(11) الشعر الجاهلي، دراسة في تأويلاته النفسية والفنية، سعيد حسون العنبكي، ص:360 .
(12) صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع المعلقات، ص:47، 48 .
(13) ديوان بني أسد، أشعار الجاهليين والمخضرمين، جمع وتحقيق ودراسة:محمد علي دقة، المجلد الأول، ص: 143 .
(14) يوسف اليوسف، بحوث في المعلقات، ص:27 .
(15) عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1983، ص: 24 .
(16) محمد زكي العشماوي، النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية، دار الشروق، 1994، ص:236. وينظر: محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، بيروت، دار النهضة العربية، د.ط،1979، ص:141.
(17) يوسف اليوسف، بحوث في المعلقات، ص:29 .
(18) نضال أحمد باقر الزبيدي، الثنائيات المتضادة في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام دار الينابيع، ط1، 2010، ص:21 .
(19) الزوزني: شرح المعلقات السبع، تحقيق:عبد الرحمن الطويل، ص: 60 .
(20) صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع المعلقات، ص:186.
(21) الزوزني:شرح المعلقات السبع، تحقيق:عبد الرحمن الطويل، ص:62.
(22) ينظر:يوسف اليوسف، بحوث في المعلقات، ص:30.
(23) الزوزني:شرح المعلقات السبع،تحقيق:عبد الرحمن الطويل،ص:64.والشنقيطي، شرح المعلقات العشر،تحقيق:أحمد أحمد شتيوى، دار الغد الجديد، ط1، القاهرة، المنصورة، مصر، 2007، ص:46 .
(24) هلال جهاد،جماليات الشعر العربي،دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2007، ص:334.
(25) يوسف اليوسف، بحوث في المعلقات، ص:29.

(26) الزوزني: شرح المعلقات السبع،تحقيق:عبد الرحمن الطويل:66،56 (عدولي:قبيلة من أهل البحرين،وابن يامن:رجل من أهلها،والجور:العدول عن الطريق،والباء هنا للتعدية، والطور:التارة والجمع:الأطوار).

(27) نفسه، ص:67، 68.

(28) ينظر:عبد الحق حمادي الهوّاس،اللوحة الضائعة في معلقة طرفة بن العبد،دراسة أدبية نقدية لبنية القصيدة العربية، ص:153، 154.

(29) الزوزني:شرح المعلقات السبع، تحقيق:عبد الرحمن الطويل، ص:68.

(30) صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع المعلقات، ص:79.

(31) ينظر:وهب أحمد رومية،شعرنا القديم والنقد الجديد،عالم المعرفة،سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس1996، ص:202، 203.

(32) ينظر:حسن فتح الباب،رؤية جديدة لشعرنا القديم،مأثورات من الشعر العربي في ضوء مفهوم التراث والمعاصرة، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص:15 .

(33) الزوزني:شرح المعلقات السبع، تحقيق:عبد الرحمن الطويل، ص:65، 66 .

(34) ينظر:صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع المعلقات، ص:48، 186.